شرحُ خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام في التّحذير من الدّنيا

النّظر بها، بدلاً من النّظر إليها

ابن ميثم البحرانيّ

«حُفَّت الجنّةُ بالمكاره، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهوات». قال أصحابُ المعاني: «وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ النّار هي الدُّنيا، ومحبّتُها بعد المفارقة هو سببُ عذابها..».

أوردَ هذه الخطبة الشّيخ كمال الدّين ميثم بن عليّ بن ميثم البحرانيّ (ت: ٦٧٩ للهجرة) في الجزء الثّالث من شرحه على (نهج البلاغة)، فشرحَ مفرداتها ثمّ استخلص منها اثني عشر درساً..

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، ورَاقَتْ بِالْقَلِيلِ وتَحَلَّتْ بِالآمَالِ، وتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ، لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، ولَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لَا تَعْدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا والرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: ﴿..كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ الكهف:٤٥. لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، ولَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، ولَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ، وحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ واحْلَوْلَى أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى. لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، ولَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَّارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا. لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى، مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، ومَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ، وذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا. سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ وعَيْشُهَا رَنِقٌ، وعَذْبُهَا أُجَاجٌ وحُلْوُهَا صَبِرٌ، وغِذَاؤُهَا سِمَامٌ وأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، ومَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ، وجَارُهَا مَحْرُوبٌ. أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وأَبْقَى آثَاراً وأَبْعَدَ آمَالًا، وأَعَدَّ عَدِيداً وأَكْثَفَ جُنُوداً؟ تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وآثَرُوهَا أَيَّ إِيْثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ، ولَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ، فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً؟ بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ ووَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وآثَرَهَا وأَخْلَدَ لَهَا، حَتَّى ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ. وهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ، أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، ولَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا، فَاعْلَمُوا وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وظَاعِنُونَ عَنْهَا، واتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: ﴿..مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..﴾ فصلت:١٥، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ، فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً، وأُنْزِلُوا الأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً، وجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، ومِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، ومِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً، ولَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً ولَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً، إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا، جَمِيعٌ وهُمْ آحَادٌ وجِيرَةٌ وهُمْ أَبْعَادٌ، مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ، حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ، وجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، ولَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً، وبِالسَّعَةِ ضِيقاً وبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ والدَّارِ الْبَاقِيَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿..كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ الأنبياء:١٠٤.

شرح مفرادات الخطبة

أقول: **الحَبْرة**: السُّرور. **والفَجْعَة**: الرّزيّة. **وغوّالة**: أي تأخذُ على غرّة. **وأَوْبَى**: أَمْرَض. **والغَضارة**: طِيبُ العَيش. **وقَوادِمُ الطَّير**: مقاديمُ ريشِ جناحِه. **وأَوْبَقَه**: أَهْلَكَه. **والأُبَّة**: العَظَمَة. **ورَنِق**: كَدر. **ورِمَام**: بالِيَة مُنقطعة. **والمَحْروب**: مسلوبُ المال. **وأَرْهَقَتْهُم**: غَشيَتهم. **وفَدَحَهُ الأمرُ**: اغتالَه وأَثْقَلَه. **والقارِعةُ**: الدّاهيةُ الشّديدة. **وضَعْضَعَتْهُم**: أذلّتهم. **والمَناسِم**: أخفافُ الإبِل. **والسَّغَب**: الجوع. **والأجنان**: جمع جنن، جمع جُنّة وهي السّتر.

واعلَم أنّ مدارَ هذا الفصل على التّحذير من الدّنيا والتّنفير عنها بذكر مَعايبها، وفيه نُكَتٌ:

فالأُولى: استعار لفظَ الحلاوةِ والخُضرةِ المتعلِّقَين بحسّيّ الذّوق والبصر لِما يروقُ النّفس منها ويلذّ، ووجهُ المشابهةِ المشاركةُ في الالتذاذ به، وإنّما خصَّ متعلّق هذَين الحسَّين لأكثريّة تأديتِهما إلى النّفس، والالتذاذ بواسطتِهما دونَ سائر الحواسّ.

الثّانية: وصفَ الدّنيا بكونها محفوفةً بالشّهوات. وفي الخبر: «**حُفَّتِ الجنّةُ بالمكاره، وحُفَّت النّارُ بالشّهوات**». قال أصحابُ المعاني: وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ النّار هي الدُّنيا، ومحبّتُها بعد المفارقة هو سببُ عذابها.

قلتُ [الشّارح ابن ميثم]: إنّ ذلك غير مفهوم من كلامه عليه السّلام، وأمّا معنى الخبر فجازَ أنْ يُرادَ فيه النّارُ المعقولةُ فيكون قريباً ممّا قالوا، وجاز أنْ يُراد بالنّار المحسوسةَ، ويكون المعنى على التّقديرين أنّ النّار إنّما تُدخَلُ بالانهماك في مشتَهيات الدّنيا ولذّاتها، والخروج في استعمالها عمّا ينبغي إلى ما لا ينبغي، فكأنّها لذلك محفوفةٌ ومحاطةٌ بالشّهوات، لا يُدخَل إليها إلّا منها. وأراد بالعاجلة اللّذّاتِ الحاضرةَ الّتي مالتْ القلوبُ إلى الحياة الدُّنيا بسببها، فأشبَهَت المرأةَ المُتحبّبة بمالِها وجمالِها، فاستُعير لها لفظُ التَّحبُّب، وكذلك قولُه: «**راقتْ بالقَليل**»: أي أعجبت بزينتِها القليلة بالنّسبة إلى متاعِ الآخرة كمّيّةً وكيفيّةً، وكذلك تجلّيها بالآمال الكاذبة المنقطعة وبزينتِها، ممّا هو في نفس الأمر غرورٌ وباطلٌ، فإنّه لولا الغرورُ والغفلةُ عن عاقبتِها لَما زانت في عيون طالبيها.

الثّالثة: استعار لها أوصافَ المُحتالة الخَدُوع؛ وهي كونها غرّارة وغوّالة: أي كثيرةُ الاستغفال لأهلها والخداع لهم، ووَصْفُ السّبع العقور لكونها أكّالةً لهم، وكنّى بالأوّلَين عن كونها كالمخادع في كَونها سبباً لغفلتِهم عمّا خُلِقوا لأجله، بالاشتغال بها والانهماكِ في لذّاتِها، وبالأكّالة عن كَونها كَالسَّبُع في إفنائهم بالموت، وطَحْنِهم تحت التُّراب.

الرّابعة: معنى قوله: **لا تَعْدُو**، إلى قوله [تعالى]: **مقتدراً**؛ أنّ غايةَ صفائها للرّاغبين فيها والرّاضين بها وموافقتها لهم لا يتجاوزُ المَثَل. وهو: أنْ تزهرَ في عيونهم وتروقهم محاسنُها، ثمّ عن قليلٍ تزولُ عنهم فكأنّها لم تَكُن. كما هو معنى المثل المضروب لها في القرآن الكريم ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ..﴾ الكهف:٤٥.

الخامسة: كنّى بالعَبْرَةِ عن الحُزنِ المعاقبِ للسُّرور، وتخصيصُه البطنَ بالسَّرّاء والظّهرَ بالضَّرّاء، يحتملُ أمرَين:

أحدهما: أن يريدَ بطنَ المجَنِّ [المجَنّ هو التّرس] وظهرَه، وذلك من العادة في حال الحرب أَن يَلقى الإنسانُ ظهرَ المجنّ، وفي حال السِّلْم أنْ يلقى المجَنّ فيكون بطنُه ظاهراً. فجرى المثلُ به في حقّ المتنكّرين والمخاصَمين بعد سِلْمٍ. فقيل: قلَّبَ له ظهرَ المجَنّ. كما قال عليٌّ عليه السّلام لابن عبّاس في بعض كُتبِه إليه: «**قلّبتَ لابنِ عمّكَ ظهرَ المجَنّ**». فكذلك استعملَ هاهنا لقاءَها للمرء ببطنِها في إقبالها عليه، ولقاءه منها ظهراً في إدبارها عنه، ومحاربتها له.

الثّاني: يحتمل أن يريدَ بطنَها وظهرَها؛ وذلك أنّ العادةَ في مَن يلقى صاحبَه بالبِشْرِ والسُّرور، أن يلقاه بوجهه وبطنِه، وفي مَن يلقاه بالتّنكير والإدبار، أن يلقى بظهرِه مولّياً عنه، فاستُعير ذلك للدُّنيا، وعُبِّر به عن إقبالها وإدبارها.

السّادسة: وإنّما خصّ منها بالجناح لأنّ الجناح محلُّ التّغيُّر بسرعة، فنبَّه به على سرعة تغيُّراتها، وإنّما خصّ الخوفَ بالقَوادم من الجناح لأنّ القوادمَ هي رأسُ الجَناح، وهي الأصلُ في سرعة حركتِه وتغيُّره، وهو في مساقِ ذمِّها والتّخويف منها، فَحَسُنَ ذلك التّخصيص، ومرادُه أنّه وإنْ حصلَ فيها أمنٌ، فهو في محلِّ التغيُّر السّريع، والخوفُ إليه أسرعُ، لتخصيصِه بالقوادم.

السّابعة: «**لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِها إِلَّا التَّقْوى**»: استثنى ما هو المقصودُ من خلقِ الدُّنيا، وأشارَ إلى وجود هذا النَّوع فيها وهو التَّقوى المُوصِلُ إلى الله سبحانه، وإنّما كانَ من أزوادِ الدُّنيا لأنّه لا يُمكن تحصيلُه إلّا فيها، وقد سبقتْ الإشارةُ إليه في قوله: «**فَتَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنيا ما تُحْرِزُوْنَ بِهِ أَنْفُسَكُم غَدَاً**». وظاهرُ أنّه لا خيرَ فيها، عداه من أزوادها، لفنائه ومضرّته في الآخرة.

الثّامنة: «**مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُه**»: أي من الزُّهد فيها، وقد عرفْتَ كيفيّةَ الأمانِ من عذاب الله. «**وَمَنِ استكثَرَ منها استكثَرَ ممّا يُوْبِقُه**»: وهو مَلَكاتُ السُّوءِ الحاصلةُ عن حبِّ قَيْنَاتها وملذّاتها الفانية، الموجِبة للهلاكِ بعد مفارقتِها وزوالِها.

التّاسعة: استعارَ لفظَ «**العذب**» و«**الحلو**» للذّاتها؛ ولفظَي «**الأجاج**» - وهو المالح - و«**الصَّبِر**»، لِما يشوبُ لذّاتها من الكدرِ بالأمراض والتّغيّرات، ووجهُ الاستعارات الاشتراكُ في الالتذاذ والإيلام.

العاشرة: استعار لفظ «**الغذاء**»، وكنّى به عن لذّاتها أيضاً، ولفظ «**السّمام**» له. ووجهُ الاستعارة ما يَستعقبُ الانهماكَ في لذّاتها من الهلاك في الآخرة، كما يَستعقبُه شربُ السُّمّ، و«السّمام»: جمعُ سمّ. ثمّ أعقب التّحذير منها بالتّنبيه على مصارع السّابقين فيها، ممَّن كان أطولَ أعماراً وأشدَّ بأساً، من تغيّراتها وتنكُّراتها لهم، مع شدّة محبّتِهم وتعبُّدِهم لها. والسُّؤالُ على سبيل الإنكار عن دوامِ سرورها لهم وحُسنِ صُحبتِها إيّاهم، وصرّح بعدَه بالإنكار بقوله: «**بَلْ أَرْهَقَتْهُم بِالقَوَادِح**»، واستعارَ لها لفظَ «**الإرهاق**»، و«**التّضعْضُع**»، و«**التّعفير**»، و«**الوطء**»، و«**إعانة رَيبِ المَنونِ عليهم**»، وأَسندَ إليها أفعال الأحياء، ملاحظةَ تشبُّهها بالمرأة المتزيّنة لخداعِ الرّجال عن أنفسِهم وأموالِهم ونحو ذلك.

الحادية عشر: لمّا فرغ من ذَمِّها والتّنفير عنها بتعديد مذامّها، استَفهمَ السَّامعينَ على سبيل التَّقريعِ لهم عن إيثارهم لها بهذه المذامّ [بعد هذا الذّمّ]، واطمئنانِهم إليها، وحرصِهم عليها. ثمّ عاد إلى ذمِّها مُجملاً بقوله: «**فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا**»: أي لِمَن اعتَقَدَ بصُحبتِها، وأنّها مقصودةٌ بالذّات فرَكنَ إليها، فإنّها بذلك الاعتبار مذمومةٌ في حقّه إذ كانت سببَ هلاكِه في الآخرة. فأمّا المتّهِم لها بالخديعةِ والغرور، فإنّه يكونُ فيها على وَجَلٍ منها عاملاً لِمَا بعدها، فكانت محمودةً له، إذ كانت سببَ سعادتِه في الآخرة.

ثمّ شرعَ في الأمر بالعمل على وفق العلمِ بمفارقتِها، وذلك أنّ تَرْكَ العمل للآخرة إنّما يكونُ للاشتغال بالدُّنيا؛ فالعالِمُ بضرورة مفارقتِها له، وما أُعِدَّ لِتاركي العمل من العذاب الأليم، إذا نُبِّه على تلك الحال، كان ذلك صارفاً له عنها ومستلزماً للعمل لغيرها، وأكّد التّنبيهَ على مفارقتها بالتّذكُّر بأحوال المُفارقين لها بعد مفارقتِها المضادّة للأحوال المعتادة للأحياء الَّتي ألِفوها واستراحوا إليها. إذ كان من عادتِهم إذا حُمِلوا أن يُسَمُّوا ركباناً، وإذا نزلوا أن يُسَمُّوا ضِيفاناً، وإذا تجاوروا أنْ يُجيبوا داعيَهُم ويمنعوا عنه الضَّيم، وأن يفرحوا إنْ جادَهُم الغيثُ، ويَقنطوا إنْ قُحِطوا منه، وأنْ يَتزاوروا في التّداني، ويَحلموا عند وجود الأضغان، ويَجهلوا عند قيام الأحقاد، ويَخشوا ويرجوا. فسُلِبَت عنهم تلك الصّفات وعُرِفوا بأضداد تلك السِّمات.

الثّانية عشر: «**فَجَاؤوها كَما فَارقوها**»: أي أَشْبَهَ مجيئُهم إليها ووجودُهم فيها وخروجُهم منها يومَ مفارقتِهم لها، ووجهُ الشّبه كونهم حفاةً عراةً، وهو كنايةٌ عن النّفر منها، ودلّ على ذلك استشهادُه بالآية الكريمة.

وموضعُ قوله: «**قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا**»: النّصبُ على الحال. كما انتصبَ «حفاةً عراةً»، والعامل: «فارقوها». ولا يقدّر مثله بعد «جاؤوها» وإن قدّر مثل الحالَين السّابقين. قال الإمام الوبريّ رحمة الله عليه: «فراقُهم من الدُّنيا أنْ خُلِقوا منها، ومجيئُهم إليها أنْ دُفنوا فيها، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ..﴾ غافر:٦٧».

ثمّ قلتُ: وكان الحاملُ لهذا الإمام [الوبريّ] على هذا التّأويل أنّه لو كان مرادُه [أي مُراد الأمير عليه السلام] مجيئُهم إليها هو دخولُهم فيها حين الولادة، مع أنّه في ظاهرِ الأمرِ هو المشبَّه ومفارقتُهم هي المشبَّه به، لانعَكَس الفرضُ. إذ المقصود تشبيهُ المفارقة بالمجيء، وذلك يستلزم كون المشبَّه هو المفارقة، والمشبَّه به هو المجيء. لكن ينبغي أن يعلم أنَّ المشابهة إذا حصلت بين الشّيئَين في نفس الأمر جاز أن يجعلَ أحدهما أصلاً والآخَر فرعاً، وجاز أن يقصدَ أصل المساواة بينهما من دون ذلك. فحملُه هنا على الوجه الثّاني أَوْلى من التَّعسُّف الَّذي ذَكَرَه [الوبريّ]. فأمّا الآية فإنّ «مِنْ» فيها لبيان الجنس، فلا تدلُّ على المفارقة والانفعال. وبالله التوفيق.

العُجْب
ما هي حقيقتُه، وهل يُبطِلُ العبادة؟

الفقيه الشّيخ محمّد تقيّ الآمليّ رحمه الله

هل العُجْبُ كالرِّياء، في كَونه مُبطلاً للعبادة مطلقاً، أم لا؟
أو يُفصَل بين المُقارن منه للعمل، والمتأخِّر عنه؟ فيُقال بالبطلان في الأوّل دون الأخير..؟
في هذا السّياق، كتب أحد أبرز أركان مدرسة الفقيه الكبير السّيّد علي القاضي، الفقيه الشّيخ محمّد تقيّ الآمليّ قدّس سرّهما الشريف في موسوعته الفقهيّة (مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى، ١٢ مجلّداً)، فقال:
«الكلامُ في العُجبِ ذو وجوه:

الأوّل: في تحديده:

اِعلم أنَّه عُرِّف [العُجْب] في علم الأخلاق: باستعظامِ النّفس بوَاجديّتها [أي بحيازتها واشتمالها على] ما تراهُ نعمةً ولو لم تكن نعمةً واقعاً، والرّكونِ إليها مع نسيانِ إضافتِها إلى مُنعمِها.

وعن بعضهم: أنَّه إعظامُ النّعمة والرُّكونُ إليها مع إضافتِها إلى المُنعِم، والتّعريف الأوَّل أَوْلى، وإنْ قيلَ برجوع الأخير إليه، كما في (جامع السّعادات).

وأمّا تعيُّنُ الأخير، والرّدُّ على مَن عرَّفه بالتّعريف الأوّل - كما في (مصباح الفقيه) [للشّيخ رضا الهمدانيّ] الرّادِّ على بعض السّادة من معاصريه، حيث يقول: «العُجْبُ في العبادة عبارةٌ عن إعظامِ العبادة، وأمّا رؤيةُ الإنسان نفسَه عظيمةً فهي كِبْرٌ متولِّدٌ من العُجْب، فما ذكره بعضُ السّادة من المعاصرين: من أنّ العُجْبَ بالعبادة [هو] أن يجدَ العاملُ نفسَه عظيمةً بسببِ عملِه، مبتهجةً خارجةً عن حدِّ التّقصير، لا الابتهاجَ بتوفيق الله تعالى وتأييدِه، لا يخلو عن مسامحة» - فلا وجهَ له. [أي لا وجه للرّدّ]

وأنت ترى أنَّ ما ذكره بعضُ السّادة من معاصريه، ذكرَه أكثرُ علماء الأخلاق ولا مسامحةَ فيه أصلاً، بل لعلَّ المسامحةَ في ما أفاده إذ لا معينَ له. وأمّا ما أفاده قدّس سرّه بقوله: «وأمّا رؤية الإنسان نفسَه عظيمةً فهي.. إلخ»، ففيه أنَّ الكِبْرَ كما عرفْتَ يلزمُه لحاظُ المتكبَّر عليه وأرفعيَّتِه عنه، ونفسُ رؤيةِ الإنسان نفسَه عظيمةً لا يكون كِبْراً، إذ يمكنُ مع تلك الرّؤية أن يرى غيرَه أعظمَ منه، فيَخضع عندَه، كما لا يَخفى.

والإدلال: هو العُجْبُ مع توقُّع جزاءٍ عليه، فاستعظامُ النّفس بالنّعمة عُجْبٌ، وهو مع توقُّع الجزاء عليه إدلالٌ، والتّكبُّر هو العُجْبُ مع ملاحظةِ ترفُّعِه على المتكبَّر عليه، ويلزمُه ملاحظةُ المتكبَّر عليه، ومع قطعِ النَّظر عن الغَير لا يحصلُ التّكبُّر، بخلاف العُجْب.

> **في الحديث القدسيّ:**
> **«..أنْذِر الصِّدّيقين ألّا يُعجَبوا بأعمالِهم، فإنَّه ليسَ عبدٌ أنصبُهُ للحسابِ إلّا هَلَكَ».**

الثّاني: في ذكر ما ورد في ذمّه من الكتاب والسُّنّة:

فمن الكتاب قولُه تعالى: ﴿..وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف:١٠٤، فإنّه كما يشمل ما إذا كان المُعْجَبُ بحُسنِ عمله مخطئاً في حُسْنِه، كذلك يشمل ما إذا كان مُصيباً في حُسْنه.

وقوله تعالى: ﴿..فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ..﴾ النجم:٣٢. وقوله تعالى: ﴿..مَّا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ الكهف:٣٥. وقوله تعالى: ﴿..وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ الكهف:٣٦، ولعلّ الآية الأخيرة تدلّ على ذمِّ الإدلال أيضاً، إذ عدمُ ظنّه بهلاك ما في يده كان ناشئاً عن زعمِه استحقاقَ ما في يده، ومع استحقاقه لا يُسْلَبُ منه، ويدلُّ عليه: ﴿..وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ الكهف:٣٦.

وبالجملة فهذا ما اطَّلعْتُ عليه من الآيات في ذمّ العُجْب، ولعلّ المتدبِّر في القرآن يطَّلِع على غيرها أيضاً.

ومن السُّنّة: طوائفُ من الأخبار لا يُمكن نقلُها كثرةً، ونشير إلى بعضٍ منها لئلّا يحتاجَ النّاظرُ إلى مراجعة سائر الكُتب، منها:

* المرويّ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله: **«لَوْ لَمْ تُذنِبوا لَخَشِيتُ عليكُم ما هو أكبرُ من ذلك: العُجْبَ، العُجْبَ».**

* وعنه صلَّى الله عليه وآله في حديثِ إقبالِ إبليسَ على موسى عليه السلام، وعليه برنسٌ ذو ألوان – إلى أن قال موسى: «**فَأَخْبِرني بالذَّنبِ الّذي إذا أذنبَه ابنُ آدمَ استَحوذْتَ عليه؟** قال إبليس: إذا أعجَبَتْهُ نفسُه، واستَكثَرَ عملَهُ، وصَغُرَ في عينِه ذَنْبُه».

"يحرمُ العُجبُ شرعاً، فهو أمرٌ إراديّ، ويُدفَع عن النّفسِ بإزالةِ مسبِّباته."

* والمرويّ عن الإمام الباقر عليه السلام في رَجُلَين دخلا المسجدَ؛ أحدُهما عابدٌ والآخَر فاسقٌ، فخرجا منه والعابدُ فاسقٌ والفاسقُ صدِّيقٌ – إلى أن قال عليه السّلام: «**..وذَلِكَ أَنَّه يَدْخُلُ الْعَابِدُ الْمَسْجِدَ مُدِلّاً بِعِبَادَتِه يُدِلُّ بِهَا فَتَكُونُ فِكْرَتُه فِي ذَلِكَ، وتَكُونُ فِكْرَةُ الْفَاسِقِ فِي التَّنَدُّمِ عَلَى فِسْقِه ويَسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ مِمَّا صَنَعَ مِنَ الذُّنُوبِ**».

* والمرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام، قال: «**العَجَبُ كلَّ العَجَبِ ممَّن يُعجَبُ بعملِه وهو لا يَدري بمَ يُختَمُ له** – إلى أن قال عليه السّلام– **والعُجْبُ نباتٌ حَبُّها الكُفرُ، وأرضُها النِّفاق، وماؤها البَغْيُ، وأغصانُها الجَهلُ، ووَرَقُها الضَّلالةُ، وثَمرُها اللّعنةُ والخلودُ في النّار، فمَن اختارَ العُجْبَ فقد بَذَرَ الكُفْرَ وزَرَعَ النِّفاق، ولا بدَّ أنْ يُثْمِر**».

* ومنها المرويّ عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث داوود عليه السلام: «**..أَنْذِرِ الصِّدِّيقين أَلّا يُعجَبوا بِأعمالِهم، فإنَّه ليسَ عبدٌ أنصِبُهُ للحساب إلّا هَلَكَ**».

* وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنَّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ الذَّنبَ خيرٌ للمؤمنِ من العُجْب، ولولا ذلك ما ابتُلِيَ مؤمنٌ بِذَنْبٍ أبداً**».

* وعنه عليه السّلام: «**من دَخَلَه العُجْبُ هَلَكَ**».

* ومنها المرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام أيضاً: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَنْدَمُ عَلَيه، ويَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيَسُرُّه ذَلِكَ فَيَتَرَاخَى عَنْ حَالِه تِلْكَ، فَلأَنْ يَكُونَ عَلَى حَالِه تِلْكَ خَيْرٌ لَه مِمَّا دَخَلَ فِيه**».

* وقال عليه السّلام في حديثِ إتيان العالم العابدَ، إلى أن قال: «**.فقَالَ له العالمُ: فإنَّ ضَحِكَكَ وأنتَ خائفٌ أفضلُ مِن بُكائِكَ وأنت مُدِلٌّ، إنَّ المُدِلَّ لا يصعدُ مِن عَمَلِه شيءٌ**».

* وعنه عليه السّلام عندما سُئل عن الرَّجُلِ يعملُ العملَ وهو خائفٌ مشفِقٌ، ثمّ يعملُ شيئاً من البِرّ فيدخله شبهُ العُجْب به، فقال عليه السّلام: «**هُوَ فِي حَالِه الأُولَى وهُوَ خَائِفٌ أَحْسَنُ حَالاً مِنْه فِي حَالِ عُجْبِه**». ويدلُّ على قُبحِه [قُبح العُجب] من الاعتبار ما لا يخفى على المُراجع لكُتُب الأخلاق.

الثّالث: عدمُ اختصاصه بالعبادات:

الظّاهر عدمُ اختصاصِ قُبحِ العُجْب بالعبادات، بل هو قبيحٌ بكلِّ ما يراهُ صفةَ كمالٍ له ولو لم يكن كمالاً واقعاً، فيقبحُ العُجبُ بالمالِ والجاهِ والحَسَبِ والنَّسَبِ ونحوها، وهذا واضحٌ لا يحتاج إلى مزيد عنايةٍ في البيان.

الرّابع: في حُرمة العُجْب شرعاً:

[وردَ] في (مصباح الفقيه) المنعُ عن حرمتِه بادِّعاء نفيِ الاختيار عنه، و[بادّعاء] عدمِ كونه مسبوقاً بالإرادة، وإنْ كانَ أشدَّ تأثيراً في البُعد عن رحمة الله من الحرام كسائر الأخلاق الرّذيلة، كحُبِّ الدُّنيا ونحوِه ممّا هو خارجٌ عن الاختيار. إلى أن قال [في مصباح الفقيه]: «ولأنَّ الأخبارَ الواردةَ في ذمِّه لا يكادُ يُستَفادُ منها أزيدَ من ذلك، فلو تعلَّقَ به خطابٌ بظاهرِه يدلُّ على ذلك لَوَجَبَ صرفُه: إمّا إلى مباديه من إهمالِ النّفس حتّى تتأثّرَ عن مباديه، وإمّا إلى وجوبِ إزالتِه – بعد حصوله – بالتّفكّر في سوء المنقلب»، انتهى بمعناه. وما أفادَه قدّس سرّه لا يُمكن المساعدةُ عليه.

والحقُّ أنَّ العُجْبَ أمرٌ اختياريٌّ. غاية الأمر يكون من المسبّبات التّوليديّة الّتي اختياريَّتُه بعين اختياريّة أسبابه، وإنَّ تحقُّقَه بتحقّق مباديه وزوالَه بزوالِها، وإذ أمكنَ إزالتُه بعد حصوله فيكون وجوبُ الدّفعِ عنه أيضاً مُمكناً، كيف وجميع الأخلاق الّتي [هي] متعلّقاتٌ للأمر والنّهي أيضاً كذلك، وبالجملة فمَن أراد الاطِّلاعَ بأزيد من ذلك فليَرجع إلى علم الأخلاق، وإنّما الكلامُ هنا في أنّ الأخبار المتقدِّمة، هل تدلُّ على حرمتِه شرعاً حتّى يصير المُعْجَبُ بعمله مرتكباً لمحرَّمٍ شرعيٍّ، ويكون ارتكابه قادحاً في العدالة أم لا؟

فنقول: أمّا العُجْبُ في غير العبادات كالعُجْبِ بالمال والجاه والعقلِ والعلم والحَسَبِ، فلا ينبغي التّأمُّل في عدم كونه حراماً شرعيّاً، ولم يُحكَ حُرمتُه عن أحدٍ، وليس في الأخبار المتقدِّمة ولا في غيرها ما يُمكن أن يُتوهَّم دلالتُه على حُرمتِه.

وأمّا في العبادات، فقد عرفتَ دعوى المحقِّق الهمدانيّ قدّس سرّه، إنَّه لا يظهرُ منها الأزيدُ من كونه من الأخلاق الرّذيلة والمُهلكات، لكنَّ الإنصاف أنَّ الطّائفةَ الأولى منها تدلّ على الحُرمة، وإنّه ذنبٌ بل هو أعظمُ من الذَّنب، بل الذَّنبُ خيرٌ منه، فالأقوى أنّه حرامٌ يعاقَبُ عليه كما يدلُّ عليه دليلُ الاعتبار أيضاً، حيث إنّه ليس للعبد أن يعجبَ بنعمةٍ وينسى نسبتَها إلى مولاه».